

## ح. ستيورات أراسكين ١٩٢٤

ترجمة سليمان الموسى

قامت السيدة أراسكين بزيارة لشرق الأردن استغرقت شهراً واحداً من ربيع سنة ١٩٢٤، ومع أن هذه الانطباعات لا تبدو عميقة في بعض الأحيان، إلا أنها تعطي القارئ فكرة عن بعض الأوضاع التي كانت سائدة في البلاد يومذاك.

زرت بلدة جرش، وتمر الطريق إليها بواسطة السيارة بقرية صويلح أولاً، ثم تمر عبر أراضي زراعية في بقعة واطئة (البقعة) ثم بين التلال التي يجري فيها وادي الزرقاء. وعند الوصول إلى النهر يتعين على المرء أن يترك السيارة ويركب الحصان الذي يكون بانتظاره على الضفة المقابلة. أما أنا فلم أجد حصاناً بانتظاري، نتيجة لخطأ في إيصال رسالتي الهاتفية. وقد ترتب على ذلك أنني عملت على إقناع سائق السيارة بأن يعبر بها المخاضة، فوافق بعد إلحاحٍ شديد. ولكن السيارة رفضت أن تصعد في الطرف المقابل، فبذلنا جهوداً شاقة حتى صعدت مسافة قصيرة وتوقفت. واتضح لنا بما لا يقبل الشك أنها لا يمكن أن تتسلق المرتفع الحاد المقابل، كما كنا نعرف أن السيارات مهما كان نوعها، لا تستطيع أن تصل إلى طرف هذه الطريق الجديدة أو أن تسير في المنطقة الوعرة التي تليها.

وبينما كنا في حيرة من أمرنا ظهر أحد الجنود وأخبرنا أن الجياد بانتظارنا فوق كتف التلة. سررت لأنني سأترك السيارة والسائق المتدمر، الذي غادرنا قائلاً إنه لا يوجد شيء أن يقنعه بالرجوع من عمان للعودة بنا، كما رتبنا معه سابقاً. وعندما بلغنا الموضع الذي كانت الجياد تنتظر فيه، كان علينا أن نتظر مجيء الدواب التي ستحمل أمتعتنا، ولذلك وصلنا إلى جرش بعد أن سادت الظلمة. وبعد أن عبرنا النهر غادرنا جنود الجيش العربي،

حينما التقينا بالمختار الذي تطف ودعانا لنحل ضيوفاً عليه. ومضيينا مع مضيفنا إلى منزله حيث أدخلنا إلى غرفة واسعة، ذات أثاث جميل ونظيف. ولم نلبث طويلاً حتى جاء حاكم البلدة وبعض الأعيان لزيارتنا. ومن حسن الحظ أن أحدهم - وهو شاب وأعتقد أن قاضي الصلح هنا - كان يتكلم اللغة الفرنسية. ثم جاء رقيب (في الجيش) ليترجم لنا، وكان يتكلم الإنجليزية بلكنة أمريكية واضحة. وعند انتهاء الزيارة انتقلت إلى الجانب الآخر من المنزل حيث استقبلتني ربة المنزل وكانت امرأة لطيفة جداً ذات وجه حزين. وقد قضيت مع هذه السيدة وفي غرفة نومها الليالي الثلاث التي أمضيتها في جرش. وكان المنزل نظيفاً إلى أقصى حد. وفي أثناء إقامتنا رسم الميجر فلتشر عدة رسومات لمختلف آثار جرش وكان يعمل بنشاط عظيم.



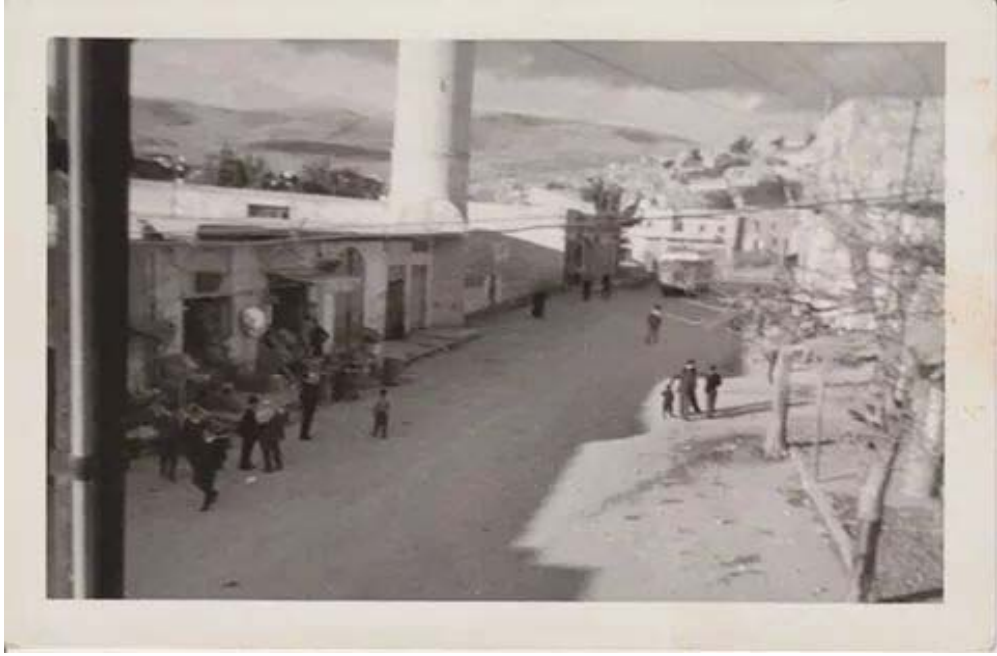
كانت جرش خربة مهملة أكثر من ألف سنة، حيث كان عام ١٨٧٨ عندما سمح الأتراك لجماعة من الشراكسة الذين فروا من المظالم في روسيا، بأن يتخذوا منها دار إقامة لهم، ومن أجل أن يعملوا في زراعة الأرض. ولما كان الشراكسة قوماً نشيطين مجدّين في أعمالهم، فسرعان ما اتضح تأثيرهم في المنطقة ولا يزال هؤلاء الناس يحتفظون بطابعهم الأصلي، بحيث يستطيع المرء بسهولة أن

يميز بينهم وبين العرب، فألوانهم أكثر بياضاً وأجسامهم أكثر امتلاءً، ورجالهم يرتدون قبعات الفرو التي تختلف كثيراً عن كوفيات العرب البيضاء. ولكن الشراكسة يشبهون العرب في كرمهم. لقد أسبغ عليّ هؤلاء الناس حسن ضيافة لا حد لها، وكان بمقدوري أن أبقى عندهم ما أشاء من الزمن، على الرحب والسعة. وفي أثناء إقامتي كان الطعام الذي يقدم لي أكثر مما أستطيع أن أتناول. وقد كلفت رفيقي إلياس أن يسألهم إذا كنت أستطيع أن أقدم لهم شيئاً، وكان الجواب أنهم لا يريدون شيئاً، وفي أثناء وجودنا أقام مضيفنا حفلة غداء على شرفنا دعي إليها الحاكم الإداري ووجهاء آخرون. وقد جلست إلى جانب الحاكم وهو عربي مهيب شديد السمرة ويرتدي عباءة بنية اللون، وفي أثناء تناول الطعام وضع في صحني من الأطيب كمية لم يكن بمقدوري أن أتناولها كلها. كان الطعام يتألف من حساء وثلاثة أنواع من اللحوم مع الأرز واللبن. وبعد الغداء تحدثت مع القاضي حول آداب العربي وأقنعت بتلاوة قصيدة مؤثرة حتى أنني أسفت أكثر من أي وقت مضى لأنني لم أقض سنة في دراسة اللغة العربية قبل أن أزور هذه البلاد. ولم أستغرب لكون القاضي يحفظ الشعر، لأن العرب اشتهروا منذ القدم بحبهم الشعر وروايته.

مرّ الوقت سريعاً في مدينة الألف عمود، وكان لا بد لنا من التفكير بالسفر. وقد أكد إلياس لنا أن السائق الغاضب لن يعود لملاقاتنا عند مخاضة الزرقاء، كما رتبنا معه. وقد حدث بمحض المصادفة أن إحدى السيارات مرت بجرش، وكان سائقها في طريقه إلى إربد، فاتفقنا معه أن يعود في اليوم التالي لنسافر معه. وكان شهر رمضان قد بدأ في ذلك اليوم، ولاحظنا أن مضيفنا قضى اليوم كله صائماً، كما أمضى وقتاً في تلاوة آيات من القرآن الذي كان موضوعاً في وسط الديوان فوق مكتب للقراءة. وفي مساء ذلك اليوم تناولنا طعام الإفطار مع رجال الأسرة.

غادرنا جرش في اليوم التالي دون أن تتمكن من زيارة جبل عجلون ذي المناظر الرائعة، أو نذهب إلى منطقة حوران التي اشتهرت بخصوبة أرضها، لقد كان في أرض جلعاد التي

اشتهرت في الأزمان القديمة بنباتاتها العطرية وخاصة بلسم جلعاد. وفي الطريق مررنا بين أشجار الزيتون والبلوط وبين حقول القمح، عبر أرض غشمة وعرة، نصعد تارةً مع التلال ونهبط تارةً أخرى مع الأودية، بينما كانت الدرب تظهر أحياناً وتختفي أحياناً أخرى.



بلغنا إربد عند منتصف النهار، وتوقفنا قليلاً لكي نتزود بالبنزين على مقربة من البركة الكبيرة. وسرعان ما غادرنا البلدة، ولم نتوقف ثانية إلا في قرية بعيدة في منطقة قفراء (ربما تكون الزرقاء). وعند العصر وصلنا فجأة إلى وادٍ جميل يجري فيه جدول ماء وتحيط بجانيه أشجار الدفلى، وشاهدنا قلعة عظيمة على تلة مرتفعة تشرف على الموقع. وبعد أن سرنا قليلاً إلى جانب خط سكة الحديد وصلنا إلى عمان، ودخلنا من جانب محطة الطيران البريطانية على الطريق الممتازة التي أنشأها جنودنا.

وفي أثناء مرورنا بعمان شاهدنا شوارعها مزدحمة إلى حدٍ ما، والناس يتتاعون أو يبيعون، والسيارات تمر بين الناس، وكان هناك قطع من الماعز يرافقه راعيها. ومررت نساء يسدلن الخمر على وجوههن. ولم نلبث طويلاً في عمان، بل اتجهنا نحو السلط فبلغناها

بعد ساعة وربع الساعة. وتجمّع بعض السلطية حول سيارتنا وحيّونا بمودة. وقدمت لنا أم سمعان كؤوس الشاي، وبعد أن ودعنا إلياس وأخذت ما كان لي من متاع، واصلنا سفرنا مرة أخرى منحدرين نحو وادي الأردن حتى وصلنا إلى جسر اللنبي. هناك شعرت بالأسى لمبارحة هذه البلاد، وأخذت أحدث نفسي عما إذا كانت ستتاح لي فرصة زيارتها مرة أخرى. وعندما أقبلنا على القدس كانت النجوم تطلّ على المدينة القديمة الرائعة، المغلفة بالغموض داخل أسوارها.

حاصلاتها: القمح والشعير والبقول والعدس والعنب والجوز.

حيواناتها الأهلية: الحيوانات الأليفة على سائر أجناسها، إلا أن الأهلين فلما يُعونون بتربية الجمال بل أحسن الحيوانات لديهم وأكثرها نفعاً إليهم هي البقر التي تستخدم بدلاً من الخيل في جر العربات والحراثة، ويرى في جرش الدجاج والحمام فقط. تسقى أراضيها بواسطة الينابيع الكثيرة التي تحيط بها من جهتها الغربية.

يحكمها قائم مقام عربي وفيها مدرستان للحكومة إحداهما للذكور تحتوي على ستة صفوف ابتدائية كاملة وتعلم فيها سائر العلوم العصرية. أمّا لغة التدريس الرسمية فيها فهي لغة الحكومة الرسمية أعني بها (اللغة العربية) وتدرس فيها اللغة الإنجليزية، وأخرى ابتدائية ذات ثلاثة صفوف وفيها مدرستان أخريتان ابتدائيتان إحداهما للروم الأرثوذكس وتديرها الأنسة (مس بطلن) الإنجليزية التي تتعاطى مهنتي التبشير والطبابة، والأخرى للكاثوليك ويديرها خوري الطائفة الكاثوليكية ويوجد في المدينة عدة كتاتيب صغيرة لتلقين الصغار القرآن الكريم والحروف الهجائية.

أما مستقبل المدينة فلا بد أن يكون زاهراً عما قريب، إذ إن العمران يزداد يوماً فيوماً، وكذلك الشوارع فإن دائرة البلدية قد افتتحت في هذه السنة شارعاً للمدينة في جنوبها الغربي وستبني فيها جسراً يسهل اجتياز السيارات الماء لدى مرورها منه وكذلك فإن البلدية آخذة في جلب الماء إلى المدينة بواسطة أنابيب توزع إلى بيوتها.

إن أعظم أبنيتها من اللبن مسقوفة بالخشب وتكثر فيها الملاريا مدة فصل الصيف الحار بواسطة المياه المستنقعة إلا أنه قلما يحصل فيها إصابة بسبب الملاريا وذلك بهمة دائرة الصحة المبذولة فيها تجاه جراثيم الملاريا وسائر الأمراض الأخرى، أما آثار المدينة فكثيرة وجميلة تشهد لها بعظمتها السابقة. أما ما قاله العلامة التاريخي (ج. باربي روبرت صن) تحت عنوان جرسه الذهبية فهناك:

### جراسا الذهبية:

جرسة تاج جلعاد الذهبي ترتبط مرة أخرى بسلاطات العالم الغربي تبعد عن مدينة القدس إلى الشمال الشرقي بمقدار ١٤٠ كيلو متراً سيراً أو في سيارة وطريق معبدة. أما خرابات المدينة الراقية فكائنة قرب بركة عالية في قلب جلعاد، نقدها يتوقف على سيلها الجميل الخصب.

إن أعمدتها وجدرانها تظهر في الصباح عند طلوع الشمس من الجدران الشرقية المتهدمة بمظهر سهام وتروس من ذهب مذاب.

جرسة الذهبية لم تنزل بعد كل هذا التدمير الذي طرأ عليها منذ القديم تظهر بمظهرها الجميل البديع.

إن أول معرفتها كان بعد حكم الإسكندر الكبير بمدة قصيرة إذ كان فيها من السكان ما يتراوح بين الستين والسبعين ألف في الأزمنة القديمة الرومانية وبعد ما يقارب الألف سنة من التاريخ الدوري هوت إلى حضيض اضمحلالها لأسباب لم نفهمها. يأوي إليها الحجاج المسيحيون الذين يأتون مدينة القدس لقرنها وبداعة مناظرها. إن الحرب العالمية قد أحدثت عدة تغييرات في ذلك القسم الصغير المسمى (بشرق الأردن) فقد صار لها حكومة جديدة تحت إمرة صاحب السمو الملكي عبد الله المعظم.



الموقع الأثري والذي أسماه الجرشيون (الخراب)

أول اتساعها ونموها وارتقائها كان بتاريخ ٣٠٠-١٧٠ قبل الميلاد. غير أن أحد الإيطاليين المسمى (إيفانوس) غير اسم المدينة بأنطاكية وساعد على نموها واتساعها ولكونها مركز القوة الهيلانية العظيمة أصبحت هدف المنازعات ومركز الحروب للإسكندر جانوس، أمّا حاسموتين ملك اليهود فقد احتل المدينة تاركاً وراءه أبنيتها الرئيسة مخرباً معظمها.

أما المدينة فمدينة يارجاعها إلى قيد الحياة الحرة مرة أخرى بعد هذا الدمار والاستبعاد إلى جيوش (بومبي) سنة (٦٤-٦٣ ق.م). كما يظهر ذلك في الحفر ومن الأرقام المرقومة على "الفسيفساء" لكنها أصبحت مركز توليد الخيول أثناء ظهور بطليموس.

أما التوليد فخاص بالأعراب، وعلى ما يظهر أن أصل الخيول هنا في ذلك الوقت لأن حبا قد استمر حتى التاريخ الأخير الذي ظهر في الملعب (هيودروم) خارج الجدران بين

المدخل وقوس النصر وفيها معبدان عظيمان الأول (لزيوس) المسمى بالعربية (زفس) والآخر (لأرثيموس).

أمّا الخراب الظاهر اليوم فيظهر أنه أصلح قبل انتهاء القرن الأول بعد المسيح وأمّا الثياترو الجنوبي "الامفيتاتر" العظيم فكان يستعمل في ذلك الحين، إذ يظهر منه أنه كان يونانياً مبدئياً ثم أنه غير إلى روماني ويستوعب كل مقعد منه (٢٥٦) شخصاً. وهناك كتابات في أوله تبرهن على تاريخ بنائه ويقال إن من بناه هو "دوميشون" الروماني، غير أن هذه الكتابات مطموسة لمرور الزمن ويوجد أرقام للمقاعد مفردة ومركبة ولكنها يونانية ثم إن (جرسه) قد حكمت من قبل (تراجان) في العصر المسيحي. وقد ظهر في زمانه الحكم العربي فأمن البلاد من الخطر بالقوات العسكرية. أمّا في القرن الثاني بعد الميلاد فقد غطيت المدينة بالأبنية وكذلك الجسر الذي ينساب إليها من الجهة الشرقية.

أمّا في سنة ١٨٠ م فقد بنى الـ (نمفيوم) (المسمى بالعربية النبع) الكائنة جنوب الـ (برويليا) أعني بها باب النصر أو المدخل الكبير الذي يدخل منه إلى معبد أرثيموس بواسطة درجات كبيرة. وعلى طول شارع الأعمدة بركة ماء تستمد الماء من أحد عشر سيلاً نازلة في عقد البناء فوقها (البركة) وعلى طولها "غريبها" هذه الخربة المنقرضة كائنة على الحد الشرقي من المنظر لكنيسة القديس "ثيودور" المكتشفة حديثاً سنة ١٩٢٧ من قبل الدكتور الأثري الفني (ج. وكرافون)، رئيس مدرسة الآثار البريطانية في القدس)، أما البوابة التي ترشد من شارع الأعمدة إلى داخل ساحة الكنيسة فكائنة في جنوبها خلال أربعين سنة ما بين ١٩٠-٢٣٠ ب. م. حكم الإمبراطورية ثلاث نساء سوريات ذكيات وهن: "جوليا ماميا" و "جوليا سومياس" و "جوليا دومنا" وفي حكمهن نجحت سوريا، إذ هناك نقش غير ظاهر بجرش يبين أهمية حكم الأخيرة منهن وكذلك نقوش وكتابات تبين أن الكنيسة بنيت سنة ٤٩٢-٤٩٦ ب. م. وتسمى في النقش (الشهيدة) (مارتيرين)، أمّا الحمامات الكائنة في الجانب الشمالي من الكنيسة فتظهر بأنها بنيت قبل سنة ٤٥٤ ب. م. بمدة قصيرة بناءً على إشارة غامضة.



أما الأعمدة التي على طول شارع العواميد بين الفوروم وجنوبي الـ (ترايلون) فقد أقيمت سنة ٥٥٠ ب.م. وكثير من هذه لم تزل قائمة أما القسم الغربي من الجسر القريب من "البروبيليا" فقد أقيم ثانية داخل كنيسة رومانية "باسليكيا" وغرفة مستديرة تبعد عن الـ "نارتكس" الغربي تحتوي على مزمور من "المزيك" وتاريخ سنة ٥٦٤ ب.م. إذ وجد قربها رأس "اسكيليثوس" الرخامي واستكشف من قبل دائرة الآثار وحول "البروبيليا" وحصون المدينة، الجدران كانت قد بنيت في ذلك العصر أما عندما صارت المدينة مسيحية فلا يعرف تماماً لأنه عندما يحدث تغيير ديني أو هداية إلى ديانة جديدة يجب أن يكون تدريجياً مستمراً وأن أول تاريخ عرف ودل على دخول الديانة المسيحية هو سنة ٣٥٩ ب.م. عندما ظهر المطران جرسه في قائمة كل من حضر اجتماع (سلوسيا)، أما في القرن المسيحي السادس فإن تنصير المدينة قد تم بلا ريب، أما الفرس فقد عنّفوا أتباع المسيحيين واليهود، إذ دخلوا المدينة سنة ٦١٠ ب.م. وأخرجوا منها سنة ٦٢٧ ب.م. قبل (هركليوس) ثم إن المدينة بعد ذلك استراحت مدة قصيرة من الحروب والتغلبات فشرع في ترميم ما قد خرب واستبداله بأكواخ صغيرة يؤوي عليها على وجه الأرض. في العصر الأول من مجيء العرب وامتدادهم في هذه الأرض كان الحظ الأكبر لمدينة جرسه وذلك في عهد الدولة الأموية في الشام إذ في عهدهم كان السلام والاطمئنان. وجدت نقود أثرية تبين أن عجلون كانت حصن الصليبيين الأعظم إذ قدم (بالدوين) قائد الحملات الصليبية سنة ١١٢١ ب.م. وكانت كل جهوده منصرفة ضد الشام وحاكمها المسلم (توغشكن). بعض الفرق تقدمت لغابة جرش لتميد الحصن الذي كان يضم ٤٠ جندياً غير أن المدينة قد نجت والحصن تهدم من قبل الصليبيين وموقعه ليس معروفاً الآن.

